المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد
وقف تعظيم الوحيين
المدينة المنورة

وقف تعظيم الوحيين

مجلة تعظيم الوحيين

مجلّة دوريّة علميّة محكّمة، تُعنى بنشر بحوث الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلّق بهما

موضوعات العدد:

- استنباط الوقوف النبوية في القرآن الكريم.
  أ.د/ حكمت بن بشير ياسين.
- الرسالة القرآنية الأولى (نزولها، معانيها، مقاصدها، وثمراتها).
  أ.د/ أحمد بن محمد الشرقاوي.
- قراءة النص القرآني من منظور الفلسفة التأريخية (عرضٌ ونقد).
  د/ زهر الفتى صالحين.
- رسالة ابن بصخان في شرح باب وقف حمزة وهشام.
  للإمام محمد بن أحمد بن بصخان (ت: ٣٤٧هـ) (دراسة وتحقيق).
  د/ أحمد بن عبدالله سليماني.
- الأحاديث الدالة على وجوب شهود جماعة المسجد للصلوات الخمس (جمعاً ودراسةً).
  د/ علي بن فهد بن عبدالله أبابطين.
- حديث «لن يفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة» (دراية ورواية).
  د/ وائل بن فواز دخيل.

حقوق الطبع محفوظة لمجلة تعظيم الوحيين

ترخيص وزارة الثقافة والإعلام -الرياض، المملكة العربية السعودية
برقم: (٨٠٤٤)، وتأريخ: ١٤/ ٤/ ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٩٩٣٩/ ١٤٣٨
تأريخ: ٢٨/ ١/ ١٤٣٨
ردمد: ١٦٥٨ - ٧٧٤x

سعر المجلة: (٢٠) عشرون ريالًا سعوديًا أو ما يعادله

عناوين المراسلات والاستفسارات

جميع المراسلات تكون باسم رئيس تحرير المجلة:
البريد الالكتروني للمجلة: mjallah.wqf@gmail.com
مَجَلّةُ تَعْظِيمِ الوَحْيَيْنِ، وقف تعظيم الوَحْيَيْنِ،
حي الروابي- المدينة المنورة: ص. ب: ٥١٩٩٣، الرمز البريدي: ٤١٥٥٣،
المملكة العربية السعودية.
هاتف المجلَّة: ٠٠٩٦٦١٤٨٤٩٣٠٠٩ تحويلة: ١١٥
جوال المجلَّة وواتسآب: ٠٥٣٥٥٢٢١٣٠ ٩٦٦+
تويتر: @wahyain-mejellah

المواد العلميَّة المنشورة في المجلَّة تُعبِّر عن وجهة نظر أصحابها وآرائهم

صف وإخراج
+966 554267436
mardy2020@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

التعريف:

مؤسّسة وقفيَّة تقوم على خدمة القرآن الكريم والسّنة النبويّة المطهّرة، وبيان هدايتِهما، وتحقيق غاياتِهما، وتفعيل مقاصدِهما.

النشأة:

في عام ١٤٢٨ هـ، كانت البداية باسم: «**مشروع تعظيم القرآن الكريم**».

وفي عام ١٤٣٤ هـ، أصبح المشروع مركزا ضمن مراكز المدينة المنوّرة لتنمية المجتمع تحت اسم: «**مركز تعظيم القرآن الكريم**».

وفي عام ١٤٣٦هـ، تم تطوير المركز واستقلاله، ليكون مؤسّسة وقفيّة باسم: «**وقف تعظيم الوحيين**».

الرؤية:

الارتقاء في تعظيم القرآن الكريم والسّنة النّبويّة ودراساتهما محليـًا وعالميـًا.

الرسالة:

تعظيم القرآن الكريم والسّنة النّبويّة في المجتمع والأمّة، بتفعيل مقاصدهما وغاياتهما وبيان هدايتهما.

الأهداف:

١- إبرازُ مظاهرِ عظمة القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة الشّريفة، وبيانُ حقوقِهما.

٢- الدفاعُ عن كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتفنيدُ الشبهات عنهما.

٣- الارتقاء بالدِّراسات البحثيّة والدّورات التّدريبيّة المتخصِّصة في الدّراسات القرآنيّة والحديثيّة وما يتعلق بهما.

مجلة تعظيم الوحيين

التعريف:

مجلّة دوريّة علميّة محكّمة، تُعنى بنشر بحوث الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلّق بهما ورقيًا وإلكترونيًا، لأساتذة الجامعات، وأهل الاختصاص، والباحثين المهتمين بعلوم الوَحْيَيْنِ.

الرُّؤية:

أن تكون المجلة منارة علميَّة بحثيَّة في خدمة الوَحْيَيْنِ الشريفين وتعظيمهما.

الرِّسالة:

تحكيم البحوث العلميَّة الجادَّة والأصيلة ونشرها في مجالات الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلّق بهما.

الأهداف:

١- نشر البحوث العلميَّة المتخصصّة في الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلّق بهما.

٢- إثراء المجلات العلميَّة في مجالات الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلّق بهما.

٣- شحذُ هِمم الباحثين للكتابة، وتلبية احتياجاتهم لنشر بحوثهم.

٤- العناية بمعايير الجودة في البحوث العلميَّة.

٥- التمهيد لمشاريع علميَّة موسوعيَّة مبتكَرة في الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلّق بهما.

٦- دعم أنشطة الوقف المتنوعة بالبحوث العلميَّة الجادَّة ذات الصِّلة بعمل الوقف وأهدافه.

المشرف العام

أ.د/ عِمَاد بن زهير حافظ

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

نائب المشرف العام

د. أحمد بن عبد الله سليماني

أستاذ القراءات وعلومها المشارك بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

رئيس التحرير

أ.د/ حِكمت بن بشير ياسين

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

مدير التحرير

د/ ياسر بن إسماعيل راضي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بجامعة طيبة بالمدينة المنورة

مساعد مدير التحرير

أ/ بلحسن بن عبد الرحمن زين العابدين

أعضاء هيئة التحرير

أ.د/ عبد العزيز بن صالح العبيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

أ.د/ عبد الله بن محمد حسن دمفو

أستاذ الحديث الشريف بجامعة طيبة بالمدينة المنورة

أ.د/ حسين بن محمد العواجي

أستاذ القراءات وعلومها بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

أ.د/ سعود بن عيد الصاعدي

أستاذ الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

أ.د/ خالد بن عون العنزي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة طيبة بالمدينة المنورة

أ.د/ عبد الله بن عبد العزيز الفالح

أستاذ الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

د/ باسم بن حمدي حامد السيّد

أستاذ القراءات وعلومها المشارك بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

د/ أمين بن عايش المزيني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الهيئة الاستشارية

أ.د/ محمّد سيدي بن محمد الأمين
أستاذ القراءات وعلومها بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(السعودية)

أ.د/ محمّد بن يعقوب تركستاني
أستاذ اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(السعودية)

أ.د/ زين العابدين بلافريج
أستاذ التعليم العالي بجامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء
(المغرب)

أ.د/ سعيد بن فالح المغامسي
أستاذ الإدارة التربوية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(السعودية)

أ.د/ غازي بن غرّاي المطيري
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(السعودية)

أ.د/ نبيل بن محمّد الجوهري
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(مصر)

أ.د/ السّالم محمّد محمود الجكني
أستاذ القراءات وعلومها بجامعة طيبة بالمدينة المنورة
(السعودية)

أ.د/ محمّد بن عبد العزيز العواجي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(السعودية)

أ.د/ أحمد بن علي السديس
أستاذ القراءات وعلومها بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(السعودية)

أ.د/ محمّد آيدن
أستاذ التفسير بجامعة صكاريا بتركيا وجامعة قطر بقطر
(تركيا)

أ.د/ عبد الرّحمن بن معاضة الشّهري
أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة الملك سعود بالرياض
(السعودية)

أ.د/ سالم بن محمّد سالم إبراهيم
خبير الجودة والتخطيط والاعتماد الأكاديمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(مصر)

د/ وليد بن بليهش العمري
أستاذ اللغات والترجمة المشارك بجامعة طيبة بالمدينة المنورة
(السعودية)

د/ عيسى بن محمّد القايدي
أستاذ الاتصال والإعلام المشارك بجامعة طيبة بالمدينة المنورة
(السعودية)

د/ المثنّى عبد الفتّاح محمود محمود
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(الأردن)

قواعد المجلة وسياستها في النشر

١- تَقبل المجلَّة في حقل الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلق بهما؛ ما يأتي:

- البحوث العلميَّة الأصيلة.
- دراسة المخطوطات وتحقيق الجدير منها.

٢- تخضع البحوث المقدَّمة للمجلَّة للتحكيم العلمي وبشكل سرِّي من أهل الاختصاص.

٣- تُحكَّم البحوث من محكمين - على الأقل - يكون قرارهما مُلزمًا، وفي حال تعارض حكمهما يُحكّم البحث من محكِّم ثالث ويكون قراره مرجحًا.

٤- يُبَلَّغ الباحث بقَبول بحثه أو عدم قَبوله برسالة رسميَّة من رئيس تحرير المجلَّة.

٥- في حال عدم قَبول البحث لا يلزم هيئة التحرير إبداء أسباب عدم النشر.

٦- إذا تم تحكيم البحث وقَبوله للنشر لا يحق للباحث استرداده أو طلب إلغائه.

٧- لا تُعاد البحوث إلى أصحابها ولا تُسترد، سواء أنشرت أم لم تنشر.

٨- حقوق الطبع والنشر محفوظة للمجلَّة.

٩- تُرتَّب البحوث في المجلَّة وفق اعتبارات موضوعيَّة وفنيَّة لا علاقة لها بقيمة البحث.

١٠- يُزوَّد الباحث بنسختين ورقيّتين ونسخة الكترونية من عدد المجلَّة المنشور فيه بحثه، وعشر مستلاّت خاصّة ببحثه.

١١- المواد المنشورة في المجلَّة تُعبِّر عن وجهة نظر أصحابها وآرائهم.

١٢- يُقدِّم الباحث إقراراً خطيـًا بصيغة خطاب مصوّر (pdf) بأنّ بحثه لم يُسبَق نشره، أو مقدمـًا للنشر في جهة أخرى، أو مستلاً من عمل علمي للباحث سواءً رسالة علميَّة: (الماجستير أو الدكتوراه)، أوغيرهما. ويُرسل على بريد المجلَّة الالكتروني.

١٣- يُقدِّم الباحث نبذة مختصرة عن سيرته العلميَّة، وعناوين الاتصال، والبريد الإلكتروني، ويُرسل على بريد المجلَّة الالكتروني، ببرنامج الوورد (word).

شروط النشر ومواصفاته

١- أن يكون البحث في تخصُّص الدِّراسات القرآنيَّة والسُّنة النبويَّة وما يتعلَّق بهما.

٢- أن يتسم البحث بالأصالة والجدَّة والابتكار، وعدم التكرار مع غيره عنوانًا ومضمونًا.

٣- أن يتسم البحث بصحة اللّغة وسلامة المنهج.

٤- يُراعى في كتابة البحث المنهج العلمي في توثيق المعلومات، وعلامات التنصيص والترقيم.

٥- ألاَّ يقلّ عدد صفحات البحث عن: (١٥) صفحة؛ ولا يزيد عن: (٤٠) صفحة؛ مقاس: (A4)، شاملة لملخص البحث، ومراجعه. ولهيئة تحرير المجلَّة الاستثناء عند الضَّرورة.

٦- كتابة ملخص باللغة العربية لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة، يشمل: (موضوع البحث، وهدفه الرئيس، ومشكلة البحث، وأهم نتائجه، والكلمات الدَّالة (المفتاحية) على موضوع البحث، ولا يتجاوز عددها: (٤) كلمات.

٧- أن تتضمن مقدِّمة البحث: (موضوع البحث، وأهميته، وأهدافه، وأسباب اختياره، ومنهجه العلمي، والدِّراسات السَّابقة عن الموضوع، والجديد الذي سيقدمه البحث).

٨- أن تتضمَّن خاتمة البحث: (أهم نتائج الدِّراسة، والتوصيات العلميَّة في عناصر واضحة).

٩- يلتزم الباحث بالمواصفات الفنيَّة الآتية:

- نوع الخط: (Lotus Linotype) لمتن البحث، وعناوينه، وحواشيه، ومراجعه، وفهارسه...، وتباعد الأسطر: مفرَداً.
- مقاس خط متن البحث: (١٦) غير مُسْوَدّ.
- مقاس خط العناوين الرئيسة: (٢٠) مُسْوَدّاً.
- مقاس خط العناوين الفرعيّة: (١٨) مُسْوَدّاً.

- مقاس خط الحواشي السُفليّة: (١٢) غير مُسوَدٍّ، وتوضع أرقام الحواشي بين قوسين؛ هكذا: (١)، ولكل صفحة من البحث حاشيتها المستقلّة.
- تكتب الآيات القرآنيَّة بين قوسين مزهّرين؛ ببرنامج مصحف المدينة النبويَّة للنّشر الحاسوبي، بمقاس خط: (١٦) مُسْوَدًّا، وتوثق الآيات في السطر نفسه بحجم: (١٤) هكذا: [سورة البقرة: ٣٠].
- تكتب الأحاديث النبويَّة والآثار بين قوسين؛ هكذا: « ... »، بمقاس خط متن البحث نفسه ومُسَوَّدَة.
- التوثيقات في حواشي البحث مختصرة هكذا: (اسم الكتاب، اسم المؤلف أو اسم الشهرة، مسوَدًّا، ويوضع الجزء والصفحة)، وتكون التوثيقات كاملة في قائمة المصادر والمراجع، (اسم الكتاب مسودا، اسم المؤلف، اسم المحقق إن وجد، دار النشر مثلا: الرياض: دار السلام، ط٤، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م). ومرتبة ترتيباً هجائياً بحسب عناوين الكتب؛ مُسَوَّدَة.
- الالتزام بمنهجية علميّة موحدة في بقيّة التوثيقات وقائمة المراجع وغيرها.
- يقدِّم الباحث نسختين من بحثه:

  - نسخة إلكترونية بصيغة وورد (word).
  - ونسخة أخرى مصورة بصيغة (pdf)، وترسل على بريد المجلَّة الإلكتروني.

الرسالة القرآنية الأولى

(نزولها، معانيها، مقاصدها، وثمراتها)

أ.د/ أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر بمصر

sharkawe2000@yahoo.com

مجلة تعظيم الوحيين

ملخص البحث

موضوع البحث:

دراسة أَوَّلِ رسالةٍ قرآنيةٍ تُؤْذِنُ بأنها دعوةٌ عالميةٌ، وأنها أَوَّلُ رسالةٍ قرآنيةٍ تضعُ اللبناتِ الأولى في صرحِ حضارةٍ إنسانيةٍ راشدة، وهي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [سورة العلق: ١ – ٥].

هدف البحث:

النظر في الخمس الآيات الأولى من سورة العلق؛ لكونها أوّل ما نزل، ولكونها أول رسالة قرآنية استهلَّ الله بها آخر كتبه.

مشكلة البحث:

ما الحكمة في كون هذه الآيات الخمس أوّل ما نزل من القرآن؟

نتائج البحث:

١ – أشادت الآيات الأولى بفضل العلم والقراءة والكتابة.

٢ – كانت الآياتُ الأولى بداية مرحلةٍ جديدة في تاريخ الإنسانية عامّة، إذ كانت منطلقًا لحضارة رائدةٍ.

الكلمات الدَّالة (المفتاحية):

علق – نزول – القرآن – اقرأ.

مجلة تعظيم الوحيين

المقدمة

الحمد لله ولي النعم، عظيم الكرم، وأشهد أن لا إله إلا الله، أوجدنا من العدَم، وأنزل إلينا الكتاب مفصَّلا بروائع البيان ولطائف الحِكَم، وأشهد أن محمدا رسول الله، أرسله ربُّه بجوامع الكلم، نذيرا وهاديا للعُرْبِ والعَجَم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي البصائرِ والهِمَم، الذين ارتقوا بالإسلام إلى ذُرَى القِمم؛ وصاروا بهداية القرآن من رعاة للغنم، إلى قادةٍ وسُراةٍ للشعوب والأمم.

ثم أما بعد: فإن المتأمل في أول ما نزل من القرآن يدرك عظمتَه لأول وهلة، ويتذوق حلاوته من أول نهلة، ويقف من البداية، على ألوانٍ من البيان، بلغت الغاية، قال تعالى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [سورة العلق:١- ٥].

وسيدرك المتدبّرُ كيف جاءت أولى بواكيره بتلك الرسالة الجامعة، وما تحمله من روعة الاستفتاح، وبلاغة الاستهلال، في خمس آيات جعلت ورقة بن نوفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشهد بعلمه الراسخ وإيمانه الصادق أنه وحي الله المنزّل، فكلام الله يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا، فقد خرج من مشكاة واحدة.

كذلك سيدركُ كيف حملت هذه الآيات الخمس خصائص القرآن، وشهدت بعالمية دعوته، وسمو مقاصده وشمول خطابه وربانيَّته، فكانت كافيةً لهداية ورقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإيمانه بنبوة من نزلت عليه، بل أعلن تأييده التامَّ له ونصرته، وتمنى لو عادت له قواه وطال به العمر، لكان خيرَ مناصر لنبي الله حين تحدق به المخاطر ويكيد له الأعداء، فيجبرونه على مفارقة بلدِهِ التي حرّمها الله.

نزل صدر سورة العلق على قلب نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يتعبّد في غار حراء، لم يصادفْه الوحيُ وهو في بيته مستريحًا متوسِّدا، لم يوافه وهو في غفلة وذهول، أو في مسامرةٍ ومنادمةٍ، بل كان اللقاءُ التاريخيُّ الأول وهو في خلوته يتعبَّد ربَّه، ويتفكّرُ في سمائه ونجومه [1]، فتمَّ اللقاءُ، في سكونِ الليل وهدأتِه، وفي ساعة صفاءٍ وتأمُّل.

نزلت الآيات الخمس لتكون أولَ عهدِه بالسماء، فكانت أول صفحة في سجلِّ التاريخ الإسلامي، صفحةً حافلةً بالمآثر والمحاسن، أول إشراقةٍ لهذا الدين الذي حمل سلاما للبشرية، ونورا يضيء

(١) قال أبو سليمان الخطَّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: حُبِّبت العزلة إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشع قلبه. والله أعلم. شرح النووي على مسلم، (١ / ٢٨٧).

طريقها، كانت صدر سورة العلق تخليدًا لأولِ لقاء، زانها ما صاحبها من روعة المشهد، وجلال الموقف، وهيبة المفاجأة، التي لم تخطر لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببال، حين فاجأهُ أمينُ الوحي جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فضمّه ثلاث ضمَّات، كأنها ضمّة مشتاق لحبيبٍ طال انتظارُه.

لقاء حارّ بين معلِّمٍ ومتعلِّم، يأمره بأن يتهيأ لخطبٍ جليلٍ، وأمرٍ عظيمٍ، بقراءة أول درسٍ إلهيٍّ، فيزدادُ الحبيبُ دهشةً، ويهتاج تشوُّقا إلى معرفة المقصود، ويجيب بصدقه المعهود: ما أنا بقارئ! [(١)] حتى يقرأ عليه جبريل بعد الضمة الثالثة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [سورة العلق: ١ – ٥].

وإلى هنا ينتهي الدرسُ الأول، فينطلقُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيتِه ويلوذُ بزوجته الحنون أمِّنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ترتجف بوادره من هول ما رأى، قائلا: زملوني زملوني! فتستقبله استقبال الأمِّ الرؤوم، وتغمره بحبها وودّها المعهود، وتغطِّيه حتى يشعر بالدفء والأمان، فيهمس قائلا: لقد خشيتُ على نفسي! فتجيب بلسان الحزم وروح اليقين: «كلا والله لا يخزيك الله أبدا... ».

من هنا تتجلّى أهمية الوقوف عند هذه الآيات الخمس، واستخلاص مقاصدها وتدبُّر معانيها، وجمع الدرر المتناثرة في كتب التفسير وعلوم القرآن حول لطائف بيانها.

وبناء على طبيعة البحث العلمي أجمل فيما يلي أسباب اختيار الموضوع ومشكلة البحث وأهدافه والدراسات السابقة:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. ترجع أهمية الموضوع لتعلقه بأول ما نزل من القرآن فهو وثيق الصلة بتاريخ نزول القرآن.

٢. أن هذا الحدث من أعظم الأحداث في تاريخ الإنسانية؛ بما صاحبَه وما وافقه وما ترتّب عليه، فهو أول لقاءٍ بين نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إنه بداية عهد جديد في تاريخ الإنسانية، وبزوغ فجر جديد من رحم ظلام الفترة التي انقطعت فيها النبوات واندرست الرسالات، حتى عمَّ الجهل وسادت مساوئ الأخلاق وشاعت مرذول العادات، إنه بداية

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كتاب: بدء الوحي- باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١/ ٥) الحديث رقم: (٣) – ورواه مسلم في صحيحه – عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كتاب الإيمان – باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١/ ١٣٩)– الحديث رقم ٢٥٢: (١٦٠) وقوله: بوادره: اللَّحمة بين المنكِب والعُنُق . جَذَعًا يعني شابا قويا حتى أبالغ في نصرتك.

ميلاد جديد للإنسانية تحيا وفق منهج الله الشامل وهدايته التي تستوعب جميع جوانب الحياة، ونوره الذي يضيء كل دربٍ، إنه بداية التأريخ للقرآن المجيد، وأول صفحة في سجلّ الدعوة الإسلامية، إنه أول قطرة من قطرات الغيث المدرار، الذي أنبت في صحراء العرب القاحلة غَرْسَا طيِّبا بهيجًا، وجيلا صالحا ربَّانيا، سعدت به الدنيا وملأ ربوع الكون عدلا ورحمة.

٣. عناية العلماء بالنظر في هذه الآيات، كونها أول ما نزل، قال ابن كثير: «فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم [١]، وقال عنها الشنقيطي: «لما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن، وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح، فهي بحق افتتاحية الوحي، فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم».[٢]

٤. حاجة الإنسانية إلى معرفة أول رسالة قرآنية استهلّ الله بها آخر كتبه، والوقوف على دقائق معانيها ولطائف بيانها. أَوَّلُ رسالةٍ قرآنيةٍ يتودَّدُ الله فيها لعباده، ويُعرِّفُهم بنفسِه، فهو ربُّنا ومليكُنا، خالقُنا ورازقُنا، ومدبِّرُ أمورِنا، على وجهِ العنايةِ والحفظِ . أَوَّلُ رسالةٍ قرآنيةٍ تُؤْذِنُ بأنه دعوةٌ عالميةٌ، تحملُ مشاعلَ النورِ، وتفتَحُ روافدَ الخيرِ، وتفجِّرُ ينابيعَ الرحمةِ للإنسانيةِ. أَوَّلُ رسالةٍ قرآنيةٍ تضعُ اللبناتِ الأولى في بناء صرحِ حضارةٍ إنسانيةٍ رائدةٍ راشدة. أَوَّلُ رسالةٍ قرآنيةٍ تضعُ لنا منهجًا رصينًا لتلقي العلومِ وتأصيلها، وتطبيقِها .

الدراسات السابقة:

بعد بحثٍ واستقصاء لم أجد من خصَّها بالكتابة إلا بحثا منشورا على بعض المواقع بعنوان **التمكين للدعوة في ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة** تفسير سورة العلق، إعداد: أبي عبد الرحمن السلفي المقدسي، هشام بن فهمي بن موسى العارف صفر ١٤٢٤، ١٤ صفحة، وما أراه إلا تفسيرا تحليليا للسورة كلها، أما عنوان البحث فلم يلتزم به الباحث. وكتب الأستاذ جودت سعيد كتابا بعنوان: (اقرأ وربك الأكرم)، طبعته دار الفكر بدمشق، كذلك كتب الشيخ عائض القرني كتابا بعنوان: (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، طبعته دار ابن حزم بيروت ١٤٢١هـ والكتابان لم يُعنيا بدراسة الآيات الخمس

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٨/ ٤٣٧).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، (٩/ ١٤).

دراسة متأنية وافية، بل كان الكلام عن العلم وآدابه وقضاياه، مع وقفاتٍ عابرةٍ وجيزةٍ، عند هذه الآيات لبيان معانيها واستخلاص مقاصدها.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة:

المقدمة: نبذة عن موضوع البحث، أهميته، أسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومكونات البحث ومنهجه .

المبحث الأول: نزولها .

المبحث الثاني: مقاصدها ومعانيها.

المبحث الثالث: ثمراتها.

المبحث الرابع: مكانة الوحي.

الخاتمة: خلاصة البحث ونتائجه وتوصياته.

منهج البحث:

- تدبرتُ هذه الآيات كثيرا، لأقتبس من هداياتها وأستخلص من دقائق معانيها وألحظ روائعَ بيانها، وأستنبط مقاصدها.
- اطلعتُ على ما كتبه كثير من المفسرين، فاستفدت كثيرا، وانتخبت ما رأيته مناسبا للبحث.
- اطلعت على غير ذلك من مراجع معنيًّا بما له صلة بهذه الآيات، فتخيّرت فوائد وانتخبت لطائف ونكاتٍ سأورد منها في هذا البحث.
- يجمع هذا البحث بين المنهج الموضوعي والتحليلي في التفسير، مع ربط الآيات بالواقع.
- مراعاة المنهجية العلمية في النقل والتوثيق والتخريج، والجمع والترجيح والتوجيه، وغير ذلك.

المبحث الأول: نزولها .

المطلب الأول: حديث بدء الوحي:

الآيات الخمس من أول سورة العلق باكورة ما نزل من القرآن الكريم، قال البغوي في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾: أكثر المفسرين على أن هذه أول سورة نزلت من القرآن.[1] وذلك لما ثبت في حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَالَتْ: **كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ، (وَهُوَ التَّعَبُّدُ) اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ . وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ! قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ (قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾** [سورة العلق: ١ – ٥])، **فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: (أَيْ خَدِيجَةُ! مَا لِي) وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلاَّ أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدا، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ، أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخا كَبِيرا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ ابْنَ عَمّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟) قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرا مُؤَزَّرًا**[2].

(١) معالم التنزيل، للبغوي، (٥/ ٢٧٩).

(٢) متفق عليه، سبق تخريج الحديث.

وقد يشكل على هذا ما أخرجه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «سألت جابر بن **عبد الله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أي القرآن أنزل قبل؟ قال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ **فقلت: أو {اقْرَأْ} فقال جابر أحدثكم ما حدثنا رسولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ - يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثِّرُونِي. فَدَثَّرُونِي فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [سورة المدثر: ١ - ٢]).[(١)]

لكن حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يتحدث عن الأولية على الإطلاق، بل عن أول ما نزل بعد فتور الوحي، وهو هذه الآيات من سورة المدثر، وهي أول ما نزل من القرآن يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإنذار. يدل على ذلك ما ثبت في الحديث نفسه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه السابق وفيه قوله:(... **فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ**) .

قال ابن تيمية: « فإن أول ما أنزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ عند جماهير العلماء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ رُوي ذلك عن جابر . والأول أصح . فإن ما في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ نزلت عليه وهو في غار حراء وأن « المدثر « نزلت بعد . وهذا هو الذي ينبغي . فإن قوله { اقرأ } أمر بالقراءة لا بتبليغ الرسالة وبذلك صار نبيا ..[(٢)]

قال ابن عطية: «وهي مكية بإجماع. وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالى، نزل صدرها في غار حراء، حسبما ثبت في صحيح البخاري وغيره.[(٣)] وقال ابن عادل الحنبلي: «قال أكثرُ المفسرين: هذه السورة أول ما نزل من القرآنِ...»[(٤)]

لقد تفاجأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوحي، لكن قلبه تعلق به إلى حدٍّ تشوقه للمزيد من رسائل القرآن، كما ينبئ عن ذلك ما رواه **الزُّهْرِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ **قَالَ: فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِ النَّبِيِّ**

(١) صحيح البخاري (١/ ٧)، ح ٤،كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، وصحيح مسلم ك الايمان (١/ ١٣٩) باب بدء الوحي (١/ ١٤٣) ٢٥٥ - (١٦١)، وفضائل القرآن، للقاسم بن سلام، (ص: ٣٦٣)، وأسباب النزول، للواحدي، (ص: ١٢)، وأخبار مكة، للفاكهي، (٤/ ٦١) ٢٤٢٨، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢٢/ ٣٦٨) (ح١٤٤٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٦/ ٢٥٤).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (٥/ ٥٠١).

(٤) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، (٢٠/ ٤١٣).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَتْرَةً وَقَالَ: كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ أُنْزِلَ عَلَيْهِ** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ **حَتَّى بَلَغَ** ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ٥] **فَلَمَّا فَتَرَ عَنْهُ الْوَحْيُ حَزِنَ حُزْنًا، حَتَّى جَعَلَ يَغْدُو مِرَارًا إِلَى رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ لِيَتَبَين خَلْفَهَا، وَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ**

قال ابن حجر: «وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجده من الرّوع، وليحصل له التشوّف إلى العود.»[(١)].

المطلب الثاني: من فوائد حديث بدء الوحي:

أولُ من آمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)] وأولُ من شدَّ من أزره وسانده في دعوته امرأةٌ، وأولُ من قدم له المشورةَ امرأة، أُمُّ المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي كانت تعدُّ له الزاد، وهو يتعبَّد في غار حراء، حين جاءها يرتجف من هول ما رآه، أقبلت عليه بعاطفة جيَّاشة، وكلمات حانية، تشهدُ له بمكارم الأخلاق، ومحامدِ الشمائل، وقد أحسنت صنعًا حين أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان على علمٍ بالكتب السابقة، لم تذهب به لكاهن أو عراف كما شاع في ذلك الزمان، بل ذهبت لعالمٍ عابدٍ، فبشَّره بالنبوة وبصَّره بطريق الدعوة، ذلك الطريق المحفوف بالأشواك والعقبات.[(٣)] فكان أولَ من آمن بنبينا كتابيٌّ، كان أولَ من أعلن الولاء والنصرة له كتابيٌّ، كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من شهد بصدق القرآن، حين استمع لأولى رسائله. أيُّ حصافةٍ تلك التي جعلت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تتوجه للعالم! ولا تتوجه لكاهن مضلٍّ!

وفي قول وَرَقَةَ: «**هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ»، لنا وقفة: فقد سجل القرآن الكريم أول ما أوحاه الله لنبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين كلمه ربه، قال تعالى في سورة طه عن تلك اللحظات الأولى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى

---

(١) فتح الباري، لابن حجر، (١/ ٢٧). ويراجع عمدة القاري، لبدر الدين العيني، (١/ ٦٢).

(٢) قال ابن عبد البر: «واتفقوا على أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به ثم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدها». الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ (٣/ ١٠٩٢).

(٣) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء رضي الله عنهم معنى كلام خديجة رضي الله عنها انك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل وذكرت ضروبا من ذلك وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء وفيه مدح الانسان في وجهه في بعض الأحوال لمصلحة نظر أو فيه تأنيس من حصلت له مخافة من أمر وتبشيره وذكر أسباب السلامة له وفيه أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي الله عنها وجزالة رأيها وقوة نفسها وثبات قلبها وعظم فقهها والله أعلم». صحيح مسلم بشرح النووي، (٢/ ٢٠٢).

﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [سورة طه: ٩ - ١٦]، لاحظ التوافق بين قوله تعالى لنبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في خطابه الله ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وبين أول حديث ربنا مع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، حيث تضمنت الرسالتان أصلين مهمين: التوحيد والرسالة، بينما تضمنت مناجاة الله لنبيه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الحديث عن الساعة.

وحين نتأمل السفر الأول من أسفار العهد القديم الذي يؤمن به اليهود والنصارى، تلك الأسفار التي تمثِّل التوراة في إيمانهم، نجد في سفر التكوين البداية بخلق الكون ثم خلق الإنسان مع ما دُسّ فيه من خرافات وأباطيل، إلا أنها لا تعدم أثارةً من الحق. وصدق ربُّنا جَلَّ وَعَلَا إذ يقول ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [سورة المائدة: ٤٨]، فالقرآن الكريم جاء مصدّقا لحقائق التوراة المنزّلة من عند الله، موافقا لما بقي في التوراة الموجودة بين أيدي اليهود والنصارى من حقائقَ، شاء الله أن تبقى لتكون حجةً على أصحابها، وإشارةً تضيء لهم الطريق إلى الإسلام[1].

(١) يراجع كتابي: الكتب السابقة في القرآن الكريم، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية المدينة المنورة (١٤٣٨) ه . كما يراجع سفر التكوين (ص ٦٤)، الكتاب المقدس، ط المكتبة الشرقية بيروت، (١٩٨٨م).

المبحث الثاني: مقاصدها ومعانيها.

المطلب الأول: مقاصدها:

الهدف الرئيس من أوّل ما نزل: تهيئة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتلقي الوحي عن الله تعالى وبلاغه للأمة، وقد جمعت هذه المقدمة مقاصد القرآن من تقرير العقيدة.

أولا: تقرير العقيدة:

١- **أما الوحدانية** فذلك هو المقصود الرئيس لهذا الاستهلال، حيث قررت الآيات الفهم الصحيح لمعنى الربوبية، أن الرب هو الخالق، وأن ما سوى الله فهو مخلوق ومربوب، فبطل بذلك عبادة الأحجار والأشجار وغيرها من عناصر الكون، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [سورة العلق: ١-٢]، وتكرر الفعل (خلق) لكنه جاء أولا على إطلاقه، لبيان أن كل ما سوى الله فهو مخلوق، كما قال ربُّنا ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝١٠٢﴾ [سورة الأنعام: ١٠٢] ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ۝١٦﴾ [سورة الرعد: ١٦] ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [سورة الزمر: ٦٢] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٦٢﴾ [سورة غافر: ٦٢].

وهذه الآيات جميعها مكية جاءت لتقرير هذا المعنى أن الرب هو الخالق، وأن المؤمن بربوبية الله تعالى يلزمه الإيمان بأنه لا معبود سواه. قال البيضاوي: «ولما كان أول الواجبات معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ نزل أولاً ما يدل على وجوده وفرط قدرته وكمال حكمته». (١) فكان أول أمر وتوجيه وتكليف: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، القراءة بالله ولله، وكان أول اسم ﴿رَبِّكَ﴾، وكان أول خبر ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ كل شيء، فلا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

٢- **وأما تقرير الرسالة:** فواضحٌ من نزول الوحي على قلب نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوته للقراءة تحمُّلا والقراءة أداء، وتأكيد ورقة بن نوفل لنبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاهد على ذلك، فالرسالة الأولى تشير

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (٥/ ٣٢٥).

إلى كونه قارئا ومبلِّغا عن ربه جَلَّوَعَلَا، كما قال الشنقيطي: «والذي يظهر والله تعالى أعلم أن قوله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي أن ما تقرؤه هو من ربك، وتبلغه للناس باسم ربك، وأنت مبلغ عن ربك على حد قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾»[1].

٣ - **أما تقرير البعث**: فإنه لم يذكر صراحة لكن يمكنُ الاستدلال عليه بأمرين: الأول كمال القدرة الإلهية بخلق الإنسان من علق، فالقادر على ذلك قادر على أن يعيده كما بدأه، وصدق ربُّنا ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾[سورة الأعراف: ٢٩]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة الروم: ٢٧]. كما يستدل على ذلك باسم الله الأكرم، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [سورة العلق: ٣] فقد يحجب الله مباهج الدنيا عن بعض أوليائه، ليبقى لهم النعيم الكامل في الجنان التي لا يدخلها أحد إلا بكرم الله ورحمته، والتي يلقى أهلها من الحفاوة والكرم ما لا يخطر لهم ببال.

وكما أن فاتحة الكتاب هي عنوانه وديباجته، فسورة العلق هي أول ما نزل فيه فكانت آياتها جامعة، لفت هذا نظر السيوطي، فقال في «الإتقان» متحدثا عن براعة الاستهلال بين فاتحة الكتاب، وبين أول ما نزل: « فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة، بتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفه فعل وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين وفيها ما يتعلق بالإخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ولهذا قيل إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله[2].

ثانيا: تعريف الإنسان بنفسه:

كذلك تقررُ لنا هذه الآيات أن الإنسان لا يستغني عن المعرفة الإلهية التي تُقْتَبَسُ من أنوار الوحي وتُستَنبطُ من معانيه، فمهما طالت مسيرة الإنسانية في طريق العلم وتعمَّقت فإنها لا تستغني عن هداية الوحي، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [سورة العلق: ١ - ٥]، عندما تقدمت العلوم سيما في مجالات الطب، وكان من أشهر المتخصصين في علم الأجنة عالم كنديٌّ يدعى كيث مور، دخل في الإسلام عندما ظهر له

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، (٩/ ١٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (٣/ ٣٦٤).

أن مراحل تكوين الجنين مذكورة في القرآن،[1]. فمن الذي علم نبيّنا ذلك؟ إنه وحي الله تعالى القائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ٦] ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة لقمان: ٣٤].

وجاء القرآن بتفصيل مراحل خلق الأجنة فقال ربنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الحج: ٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وهكذا تسبق الهداية القرآنية ما اهتدى إليه علماء الطب البشري بعد جهود متضافرة وتقنياتٍ هائلة، فضلا عن تأسيس الوحي وتكميله لعلوم العقيدة والشريعة التي ليس لها إلا مصدرٌ واحدٌ وطريقٌ واحد هو طريق الوحي، إذ لا يمكن للعقل أن يهتدي إليها بتفكيره المحدود، أو يوجد بديلا صالحا يغني عن شريعة الرحمن، وما حيرة الفلاسفة وتخبُّطهم مع ما قيل عن عبقريّتهم وطول تفكُّرهم، وما قصور القوانين الوضعية التي سنّها البشر، وما تناقض التصوُّرات للكون والحياة إلا دليلٌ على حاجة البشرية للوحي، لا تستغني عن ذلك أبدًا؛ لذا أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، لهداية الناس وتربيتهم وتقويم معوجّهم، وتصحيح تصوراتهم، والتشريع لهم، وإقامة الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء: ١٦٥]، فلو كان العقل كافيًا لقامت به الحجة، لكنه يقصرُ عن ذلك.

جاء الأمر الأول ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ولم يقل تأمَّل أو تفكَّر أو اكتشف، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإقرار

(١) ttps://www.youtube.com/watch?v=h٠uzTjfAIP٠ قصة إسلامه مسجلة.

والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة . وهذا قول جمهور الناس وعليه حذّاق النظّار أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة وتارة بالنظر كما اعترف بذلك غير واحد من أئمة المتكلمين . وهذه الآية أيضا تدل على أنه ليس النظر أول واجب بل أول ما أوجب الله على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ لم يقل « انظر واستدل حتى تعرف الخالق» وكذلك هو أول ما بلغ هذه السورة . فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء ولم يؤمروا فيها بالنظر والاستدلال . وقد ذهب كثير من أهل الكلام إلى أن اعتراف النفس بالخالق وإثباتها له لا يحصل إلا بالنظر».[1]

إذ لو وُكِّل الإنسان لمعرفة حقيقة إنسانيتِه لضلَّ وأضل، فكم رأينا من مفاهيم خاطئة عن الإنسان يتبنّاها علماء الغرب مع تقدمهم في العلوم المادية، لا تقل ضلالة وسخافةً عن خرافات وأساطير الشرق القديمة، حتى رأينا كيف شاع في الأوساط العلمية الغربية: أن أصل الإنسان قرد، وكيف كانت نظرتهم للإنسان الأول أنه متخلف وحشي، لم يهتد لتفكيرٍ منطقيٍّ، ولم يحسّ بشعورٍ حينا من الدهر حتى اكتشف بالمصادفة قدرته على التفكير والمشاعر، حتى النار يقولون بأنه اكتشفها مصادفة! واكتشف وظيفتها في الطهي موافقةً! حين كان يستدفئ ذات مرة بالنار فسقط طائر عليها فشوته، فأكله فاستلذَّ طعمه، فعرف الطبخ بالنار والشواء، هذا هو حصاد العلم الماديّ مع تقدمه الهائل! بما يؤكد لنا حاجة الإنسان إلى هداية الله لمعرفة إنسانيته وأصله، ولذلك حدثنا الوحي عن تلك المراحل التي لا يمكن لذاكرة التاريخ أن تستوعبها أو تستنتجها أو تكتشفها، من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ . فأول معرفة بشرية كانت من الله بلا واسطة، بل تلقين مباشر من ربنا جَلَّوَعَلَا، وكان لتلك المعرفة أهميتها وقيمتها ومزيتها بدليل خفائها على الملائكة.

وإذ نجح البشر في اكتشاف بعض سنن الكون بالمصادفة، أو بالبحث والتجارب، فإنهم عجزوا

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٦/ ٣٢٨).

عن اكتشاف السنن الإنسانية، وحاروا حولها؛ إذ لا سبيل لمعرفتها إلا بالوحي، فضلا عن التشريعات التي تنظم حياة البشر، إذ فشلت كل الأنظمة والقوانين المخالفة لشريعة الرحمن، وعجزت عن تحقيق العدالة والرحمة، ومراعاة الفطرة الإنسانية واستيعاب اختلاف طبائع النفوس، ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [سورة الشورى:١٣]. ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ ﴾ [سورة الجاثية: ١٨].

ثالثا: تعريفه بالكون:

ومن مقاصد أول ما نزل: لفت النظر إلى المخلوقات وعجائبها، ودلالة ذلك على ربوبية الله تعالى وعظمته، والدعوة إلى اكتشاف أسرار هذا الكون من الذرة إلى المجرة، ومعرفة سنن الله تعالى في هذا الكون. ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ فجاء الفعل هنا مطلقا، ليدلّ على كل ما خلقه الله تعالى، فبقدر معرفتنا بالعوالم التي خلقها ربُّنا بقدر تعظيمنا له وإيماننا بربوبيته، خلقا وملكا وتدبيرا ورزقا وإحياء وإماتة، فكل العوالم المشاهدة والمغيّبة من خلقه تعالى.

المطلب الثاني: معانيها.

١ – قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ يحمل أوَّلُ توجيهٍ إلهيٍّ، دعوةً عامةً إلى القراءة، وحثًّا على العلم؛ فالقراءةُ وسيلةُ الوعي والمعرفةِ، والعلمُ طريقُ المجدِ، ونبراسُ الرقيِّ والحضارة، فتضمّنت أولى كلمات أولى الآيات أمرا، ولهذا دلالته، فرسالة القرآن أحكامٌ وأخبارٌ، تكاليفُ إلهية فيها الخيرُ للإنسانية، وأخبارٌ صادقة فيها الهداية والمعرفة والبشارة والنذارة، وبداية الوحي بالأمر من دلائل العظمة، فالأمر من الأعلى، تنويه بسمو رسالة القرآن، وعظمتها، والبداية بالخطاب يبرهنُ أنه ليس من عند محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بل من عند ربه جَلَّ وَعَلَا، إذ جرت عادة المؤلفين أن يبدأ بالكلام عن نفسه .

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾: مُفْتَتِحًا بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خلقك ورزقك وربّاك، قراءة إعداد وتعلُّم بإخلاص نية وصحة وسيلة، فالباء للاستعانة أي مستعينا بالله أو للمصاحبة أي مستصحبا عون الله وتوفيقه، ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ فلتكن القراءةُ بالله ولله، فمنه تعالى العونُ والتوفيقُ، وهو غايتُنا ورجاؤُنا، وسيِّدُنا ومليكُنا؛ فينبغي أن نطلب العلم لله، ونجرِّد العملَ له وحده، ونبرأَ من كلِّ حولٍ وطولٍ، إلى حولِه وقوتِه، ونطلب المزيد من العلم منه وحده، فهو معلِّمُنا ومُلهِمُنا.

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ فالخالق عَزَّوَجَلَّ قد هيَّأنا للقراءةِ بما أودعه فينا من العقل والفهم والاستيعاب، والسمع والبصر والفؤاد، ولأنه تعالى هو خالقنا فهو وحده الذي يأمرُنَا وينهانا، ويُنظِّمُ دنيانا، ولأنه تعالى هو خالقنا ومعلِّمنا؛ فقد أنزل كتابَه نبراسا لنا.

٢ – قوله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾: تفصيلٌ بعد إجمالٍ، بيانًا لأصلِ هذا الإنسانِ ونشأتِهِ، وإشارةً لمادة خلقِهِ، وطورٍ من أطوارِها العجيبة، فمعرفةُ الإنسان بأصله وأطواره، مما يضيء له طريقَه وينيرُ بصيرتَه، وإذا كانت علوم الحياة مبنيةً على علاقة الإنسان ووعيه بالكون والكائنات؛ فإن معرفته بذاته هي الركيزة والمنطلق لهذه المعرفة الضرورية، قال البيضاوي: « ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ خَلَقَ الْإِنْسانَ فأبهم أولاً ثم فسّر تفخيماً لخلقه ودلالة على عجيب فطرته». (١)

وقال الشوكاني: «وإذا كان المراد بقوله: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ كل المخلوقات فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفا له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع وإذا كان المراد بالذي خلق الذي الإنسان فيكون الثاني تفسيرا للأول والنكتة ما في الإبهام ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولا ثم فسر ثانيا » (٢). والأظهرُ: حمل المطلق على إطلاقه، فقوله ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ يعمُّ كلَّ مخلوق، فلا دليلَ على تخصيصه بالإنسان، ثم خصّ الإنسان بالذكر؛ لأهميته ومزيّته وتشريفه، ولأنه المقصود بالخطاب. قال القرطبي: « وخص الإنسان بالذكر تشريفا له. وقيل: أراد أن يبين قدر نعمته عليه، بأن خلقه من علقة مهينة، حتى صار بشرا سويا، وعاقلا مميزا. ». (٣)

ومن الملاحظ: ارتقاء الإنسان في خلقه من علقة إلى أن صار بشرا سويا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ ﴾ [سورة الانفطار: ٦ – ٧]، في أحسن صورة وتقويم ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ٤ ﴾ [سورة التين: ٤]، وارتقاؤه في سلّم العلم حيث علّمه ما لم يكن يعلم ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [سورة النحل: ٧٨]، حتى فاق الإنسان غيره من المخلوقات بتفكيره وتجاربه واستنباطه وابتكاره، وتطويره المستمر لأنماط حياته، يبني ويطوّر، يبدع ويؤلّف، فأصبح هذا الكائن الذي مرَّ بأطوارٍ عجيبةٍ في أرحام الأمهات حتى صار بشرا سويا، هو كذلك كائنٌ قادرٌ على التطوير

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، (٥/ ٣٢٥).
(٢) فتح القدير، للشوكاني، (٥/ ٥٧١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٢٠/ ١١٩).

وإحداث التغيير في معايشه، ووسائل حياته، بينما العوالم الأخرى من حوله لا تطوّر من حياتها، ولا تتوارث تاريخها، ولا تحفظ تجاربها، ولا ترتقي بمعارفها، فبيوت العنكبوت ومساكن النمل وأعشاش الطيور، وأوكار النسور، وجحور القوارض، وكُنّاس الظباء، وخلايا النحل وأوجرة الضباع، هي كما هي منذ آلاف السنين، لا يعتريها تغيير، ولا تمسُّها روحُ تطوير، أما عالم البشر فإنه عالم متطور، في كل جوانب الحياة، في الأبنية والدور، في المدائن والقصور، في الطرقات والميادين والجسور، وفي الأثاث والرياش، وفي الملابس والمراكب، وغيرها من وسائل المعيشة وآلاتها، الضرورية أو الكمالية.

٣ - قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾: التوجيه الأول والثاني في رسالةِ الإسلام ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وما ذاك إلا لأهمية القراءة ودورها الحيوي في حياة هذا الكائن، وللمرة الأولى يعرفُنا ربّنا بصفةٍ من صفاته، صفة الكرم، فالله تعالى أكرمُ من كلِّ كريمٍ، ومن العجيب أن يستهلَّ بها آخرَ كُتبِه، بعد فترةٍ من الرُّسلِ واندراسٍ للكتب، وفي هذا ما فيه من التودُّد إلى الإنسان والإقبال عليه، والعناية به، وتقديمِ البشرى له، وحفزِه على العلمِ والعملِ؛ فإنَّ الذي وهبه القدرات والملكات، هو الذي يثيبُه ويجازيه؛ إنه أكرمُ الأكرمين، فلماذا لا يسارعُ إلى العلم النافع، ويتنافس في ميادينه؛ لخدمة دينه، ولأجل الإنسانية وراحتِها، فإنَّ الأجر والثوابَ من أكرم الأكرمين، في الدنيا قد تفوتُ المعلِّمَ الجوائزُ وتُحْجَبُ عنه المحفِّزاتُ، أو يحرمُ من التقدير، أو يعيشُ مغمورا، ويموتُ منسيًّا، ولكن هذا لا يضيرُه؛ إذا كان يرتقبُ الأجر من أكرم الأكرمين، ممن لا يَضِيعُ عنده عملُ العاملين ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾. وحريٌّ بالمجتمع أن يكرم المعلّم الذي وعده ربُّ العالمين بالإكرام، وهذا الإكرامُ الربانيُّ دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فللعلماء منزلتهم في الدارين، بعلمهم وتقواهم.

يأتي الأمر الثاني مقترنا بالجزاء لقاء التعلّم والتعليم، ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ فالإنسان مثابٌ في الحالتين، حالة الأخذ والتلقي وحالة الأداء والعطاء، مثابٌ على عنائه في طلب العلم، ومكابدته، وسهره الليالي، وتجشُّمه الصعاب، ومخاطرته بالسفر والترحال، ومفارقته للأهل والأوطان، وعزلته عن الأصحاب والخلان، وحرمانه من الراحات والملذات، ومثاب على صبره على الطلاب واقتطاعه من وقته لهم، وفيضه عليهم من بحر علمه، وحلمِه بهم وترفُّقه، وتواضعه، وزهده وورعه وأمانته، وكم تحمَّل العلماء في سبيل العلم من مصاعب ومخاطر، في رحلاتهم العلمية كم ذاقوا من حرمانٍ وكم واجهوا من مخاوف وتحديات! وكتب التراجم والأخبار حافلة بحكاياتهم، زاخرة بمآثرهم، فطريق العلم ليس مفروشا بالورود والرياحين، بل طريقٌ طويلٌ مفعمٌ بالمصاعب والعقبات، وصدق من قال:

أخي لن تنالَ العلمَ إلا بستَّةٍ ... سأنبيكَ عن تفصيلِها ببيانِ
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبُلْغَةٌ ... وصحبةُ أستاذٍ وطولُ زمانِ[1]

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: اقرأ مستحضرا كرم الله تعالى الذي لا حدَّ له، فلا يدانيه كرمٌ ولا يقاربُه عطاء، إنه أكرم الأكرمين، يبتدر عبدَه بالعطاء، من حيث لا يحتسب، عطاء فوق ما يستحق الإنسان، وفوق ما يتوقعه، عطاء يليق بعظمته وجلاله، جاءت امرأة إلى اللَّيْث بن سعد تسأله قدحا من عسل، فأمر لها بزق عسل، فقيل له في ذلك، فقال: إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر السعة علينا.[2]، فما بالك بأكرم الأكرمين!

قال الزمخشري: «الْأَكْرَمُ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي واطِّراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فما لكرمه غاية ولا أمد»[3]. اقرأ واستحضر كرم ربك، وهل هناك أكرم من العلم، إنه أعظم إكرام.

والقرآن الكريم زاخرٌ بتكريم أهل العلم، وقد بيّن أنَّ العلم من أعظم عطاء الله وأجلِّ إكرامه قال تعالى عن الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [سورة الكهف: ٦٥]، فالعلم منحة خاصة، ومزيةٌ عظيمة، وقال تعالى ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ [سورة النمل: ١٥]، وقال تعالى مخاطبا حبيبَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وممتنًّا عليه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [سورة النساء: ١١٣]، فهذا العطاءُ العظيمُ من فضل الله على نبيِّه ورحمته به .

٤ – قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ علَّم الإنسانية وأرشدها إلى وسائل التعلُّم وأدواتِه. ونزول هذه الآية على النبي الأميِّ لتطرق مسامع الأميين وتلفتَ أنظارهم إلى العلم ووسائله والقراءة وأدواتها. وكم كان لذلك أثرٌ بالغٌ على أُمَّةِ محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي ارتقتْ إلى صدارةِ الأممِ، وتسلَّمت دفَّةَ

(١) البيتان لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، أبي المعالي بن أبي محمد، الفقيه الشافعي، الإمام، الملقب بإمام الحرمين (ت ٤٧٨) هـ. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، انتقاء الحافظ ابن الدمياطي ت٧٤٩هـ (١ / ١٣٠). و«البُلْغَةُ» ما يتبلغ به من العيش ولا يفضل يقال «تَبَلَّغَ بِهِ» إذا اكتفى به. المصباح المنير، للفيومي، (١ / ٣٧).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، (٥٠/ ٣٧٠)، سير أعلام النبلاء للذهبي، (٧/ ٢١٢).

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، (٤/ ٧٧٦).

قيادةِ موكبِ الإنسانيةِ، حاملةً لواء العلمِ ورافعةً مشاعلَ النور، وشيَّدت أرقى حضارةٍ عرفتْهَا الإنسانيةُ في مسيرتها .

ملكنا هـذه الدنيـا قرونـا وأَخْضَعـهَا جُدُودٌ خالـدُونا

وسطَّرنـا صحائفَ من ضياءٍ فما نسِي الزمانُ وما نسينا[1]

قال المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ : « أي: الذي جعل القلم واسطة التفاهم بين الناس على بُعد الشُّقَّة، كما أفهمهم بواسطة اللسان والقلم آلة جامدة لا حياة فيها، وليس من شأنها الإفهام، فمن جعل من الجماد الميت الصامت آلةً للفهم والبيان. أفيصعبُ عليه أن يجعل منك قارئا مبيّنا، وتاليا معلِّما، وأنت إنسان كامل؟ [2]، فالكتابة آية عظيمة تدلُّ على قدرة الله وإكرامه، لو تأمّلنا كيف يفصحُ عودٌ جمادٌ أو ريشةٌ ميتةٌ، فيفيض بمدادٍ بيانا يترجم عمَّا في الخاطر، ويُعرِب عما يجيشُ في الضمائر، ويحرِّر ما يختلجُ في الفكر، ويقيّد الشوارد ويصيد الأوابد، ويدوّن العلومَ ويسجِّل التواريخ والوثائق، ويخلّد الملاحِم والمعارك، ويحصي الأعداد والمقادير، ويخاطب الملك والوزير، ويدوِّن الآداب، ويحفظ التراث والتجارب الإنسانية، فالقلمُ بحقٍّ أعظمُ وأقدمُ آلة عرفتها البشرية على مر التاريخ، وقد أقسم به ربنا تنويها بشأنه: ﴿ نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾ [سورة القلم: ١].

٥ – قال تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فالعلمُ كله عطاء من الله، والوحي هو المصدر الأول للتعلُّم والتلقِّي، والأنبياء إلى جانب دعوتهم لإصلاح الدين جاءوا بصلاح الدنيا، ونقلوا للإنسانية كثيرا من العلوم والمعارف عن طريق الوحي، حتى تميَّز الإنسانُ بالعلمِ والفهمِ، والتلقِّي والتلقين، والتحصيلِ والاستيعابِ، والتجربةِ والملاحظةِ، والاستقراءِ والاستنباطِ، والتطوير والابتكار، من منطلقِ الوحي الإلهي.

(١) البيتان من قصيدة طويلةٍ رائعة لهاشم الرفاعي.

(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (٣٠/ ١٩٩).

المطلب الثالث: فوائد من الآيات.

١. عناية القرآن بالإنسان، فالإنسان هو محور هذا الكتاب العظيم .

٢. دار أولُ ما نزل من القرآن حول بيان أجلّ نعمِ الله على الإنسان .

٣. أول أمر للإنسان أن يقرأ ويتعلم، فالقراءة طريقه للعلم، والعلم سبيل الهداية والرقي.

٤. كانت ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أول ما نزل: فصارت دعوة لإثارة العقول وتنوير الأذهان وتبصير النفوس، وباتت إلهاما للكتاب والأدباء والبلغاء. والأمر بالقراءة ليس عشوائيا، يقرأ الإنسان كل ما يتفق له، ويتصفح كل ما تقع عليه عيناه من صحيفة أو مجلة أو رواية، بل أحق ما يقرأ كتابُ الله، فهو نبراس الهدى، ومنارُ السبيل، وهو المقصود هنا بالقراءة، فهو مفتاح العلوم ونبراس الهدايات، وهو المنارة للسائر، والهداية للحائر، والبيان للمستبين، والبصيرة للمستبصر، كم يقرأ الناس من كتب ومجلات وصحف! وكم تصدر كل يوم من موسوعات ودراسات! ولكن لن يغني تراث بشري مهما جوّد وأتقن عن كتاب الله تعالى، إذ لا هداية ولا سعادة إلا باتباعه، وهانحن نرى أكثر شعوب العالم قراءة كالشعب الياباني على سبيل المثال كيف يغرق كثير من أفراده في الخرافات والأساطير، أو يتخبطون في ظلام الإلحاد .

٥. تكرر الأمر بالقراءة لأهميتها ومزيتها فهي مفتاح العلوم وباب المعارف وسبيل الهداية ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ كما تكرر ذكر الربِّ جَلَّوَعَلَا مرتين، مرةً في معرض الامتنان على الإنسان بنعمة الوجود، ومرة في بيان نعمةٍ من أجل النعم، وهي نعمة العلم، غذاء الأرواح، وقوتُ القلوب، وروحُ الأممِ والشُّعوب، فتكرار صفة الربوبية لبيان وتقرير عناية الخالق بالإنسان فهو تعالى الذي خلقه ورزقه وعلمه .

٦. أول طريق الهداية التعلّم، ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾. وأول مسار الدعوة طلب العلم، فالداعية لا بد أن يتزود بالعلم وبه يتسلح.

٧. كرَّم الله الإنسان بالعلم، فينبغي أن يحسن الانتفاع به فهو سبيل الإصلاح وطريق الفلاح.

٨. قال الرازي: «أول السورة يدلُّ على مدح العلم، وآخرُها يدلُّ على ذم المال وكفى بذلك مرغِّبًا في الدين والعلم، ومنفراً عن الدنيا والمال». [١]

(١) التفسير الكبير، للرازي، (٣٢ / ٢٢١).

٩. ذكر الخاص بعد العام ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾، تكريمٌ للإنسان واعتناءٌ بشأنه.

١٠. ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ بيّن الآلة والوسيلة، كما بيّن المستهدف بالتعليم وهو الإنسان.

١١. عالمية الإسلام من رسالته الأولى، فهو دين الإنسانية.

١٢. جاء في كتاب صبح الأعشى في فضل الكتابة: « أعظم شاهد لجليل قدرها وأقوى دليل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتدَّه من وافر كرمه وإفضاله فقال عز اسمه ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ مع ما يروى أن هذه الآية والتي قبلها مفتتحُ الوحي وأولُ التنزيل على أشرف نبي وأكرم مرسل، وفي ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه ».[١]

١٣. لما امتنَّ الله تعالى على عباده بأن علَّمهم كيف يكتبون بالقلم فيحفظون تراثهم ويدوِّنون علومهم، ويقيِّدون الفوائد والشوارد، ويحرِّرون الكتب والمقالات والقصائد، كان من شكر هذه النعمة توجيه القلم لكل ما هو نافع، وصرفه عن كل غثٍّ وباطل: وصدق من قال:

وما من كاتب إلا سيبلى ... ويُبقي الدهرُ ما كتبتْ يداه

فلا تكتب بكفِّك غيرَ شيء ... يسرُّك في القيامة أن تراه

المطلب الرابع: مضامين الرسالة الأولى.

القرآن رسالة الله تعالى الخالدة، بل رسائله المتجددة، كما قال الحسن البصريُّ: «إن من كَان قبلكم رأوا القُرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»[٢]. وقول الغزالي: «قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائلُ أتتنا من قِبل ربنا عَزَّوَجَلَّ بعهوده نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات»[٣]. والرسالة القرآنية الأولى كما سميناها تنتظمُ رسائلَ عدة منها:

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القَلْقَشَنْدي المصري، الكاتب، (ت ٨٢١هـ) (١/ ٦٣).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، (ص ٢٨).

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي، (١/ ٢٨٥).

أولا: رسالة إيمان ومعرفة: فآية الخلق أعظم برهان على ربوبية الله تعالى، لذلك بدأت بها أول آيات القرآن، فبدأ باسم الرب مضافا لضمير المخاطب، لبيان ربوبيته تعالى للعالم، وأخبر أول ما أخبر عنه بأنه خلق كل شيء، لأن أول ما ينقدح في ذهن الإنسان من تساؤل: من خلقني؟ من وهبني الحياة؟ من أين جئت؟ فكانت الرسالة الأولى مجيبة عن أهمِّ الأسئلة، وأكثرِها تردُّدًا؟ قال البقاعيُّ: «وبدأ بالخلق لأنه محسوس بالعين فهو أعلق بالفهم، وأقرب إلى التصور، وأدلُّ على الوجود وعظيم القدرة، وكمال الحكمة، فكان البداءة به في هذه السورة التي هي أول ما نزل أنسب الأمور؛ لأن أول الواجبات معرفة الله، وهي بالنظر إلى أفعاله في غاية الوضوح»[(١)]. وحين سأل فرعونُ نبيَّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ربه عَزَّوَجَلَّ، أجاب بأنه الذي خلق وهدى ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [سورة طه:٥٠]. وفي أول نداء قرآني بترتيب المصحف، بل وفي أول أمرٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [سورة البقرة: ٢١ – ٢٢]، أي وأنتم تعلمونه أنه لا ربَّ سواه، فهو وحده الذي خلق ورزق.

أ. تعريف الإنسان بخالقه: «القرآن الكريم كله قائم على ترسيخ مفهوم الرب في قلوب المربوبين، عسى أن تستجيب فطرهم لأداء حق الربوبية، بتوحيد الألوهية عبادةً لله ربِّ العالمين»[(٢)]. «وإن المعرفة بالله تملأ قلبك أُنسًا بالله ثم أُنسا بالحياة، وأنسا بالكون والكائنات»[(٣)]. ونعمة الخلق هي أعظم النعم بل هي أساسُها ومبتدؤها، فتلفتُ الآيات الأولى إلى أنه تعالى خلق، وخلقه لا بد لحكمةٍ وغايةٍ، فعلى المخلوق أداء رسالته نحو خالقه. ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥ – ١١٦]، والذي لم يخلقنا عبثا، لن يتركنا سدى، ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾ [سورة القيامة: ٣٦ – ٤٠]، فالإيجاد الأول برهان على الإيجاد الثاني، الخلق دليل الإعادة، كذلك الآية الأولى تصحح مفهوما، أن

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (٨ / ٤٧٩).

(٢) بلاغ الرسالة القرآنية، فريد الأنصاري، (ص ٧٧).

(٣) المصدر السابق، (ص ٨٩).

الرب هو الذي خلق، قال ابن عطية: «ولما ذكر الربّ وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أربابا جاءه بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾». (١)

وامتنَّ الله على عباده بنعمة العلم، وهو من أسباب الرقيِّ الإنساني، ووصف نفسه بالكرم، وهو من صفات الكمال والجلال الرباني، قال ابن عاشور: « وقد جمعت هذه الآيات الخمس من أول السورة أصول الصفات الإلهية فوصف الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ووصف ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها. ووصف ﴿ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص.. (٢). وقال البيضاوي: «وقد عدّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه، من أن نَقَلَهُ من أخسِّ المراتب إلى أعلاها، تقريراً لربوبيته، وتحقيقاً لأكرميته» (٣).

ب. تعريف الإنسان بذاته: من الأهمية بمكان تعريف الإنسان بذاته، وإرشاده إلى حقيقته، وتبصيره بأصله ومنبته، حتى لا يستهين بنفسه، ولا يحتقرها إزاء غيره من المخلوقات المحيطة به، كما يقع من أتباع بعض الديانات، فتجد من يركع لبقرة أو ينحني لفأرة، أو يخرّ لنملة، محتقرا إنسانيته، ومهدرا كرامتَه، بينما نرى على النقيض من يغترُّ بإنسانيته ويتعالى على غيره من مخلوقات الله، فينظر بعين الازدراء وينفثُ روح الاستعلاء، وهنا يتأرجح البشر بين شعورين بغيضين متناقضين، شعور بالمذلة والهوان، والدنيّة والصغار، يقابله شعور بالغرور والعجب .

أما الشعور بالمذلة والحقارة: فيدفعه تكريم الله للإنسان في أولى رسائل آخر رسالاته، حيث خاطب الله تعالى رسول الإنسانية، بواسطة أكرم رسله أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وخصَّ خلق الإنسان بالذكر عطفا على الخلق عموما تنويها بشرف الإنسان وتفضيله على كثير من المخلوقات، وكيف كرَّمه الله تعالى بتعلُّم القراءة والكتابة. قال الزمخشري: «إن في الآية تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته» (٤).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، (٥/ ٥٠١).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٣٠/ ٤٤٠).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (٥/ ٣٢٥).

(٤) الكشاف، للزمخشري، (٤/ ٧٧٥) .

وأما الشعور بالغرور والاستعلاء: فيبدِّده النظرُ في أول مراحل خلق الإنسان، حيث لا يكاد يُرى، ولا يُذكر، وتصوُّره وهو متشبِّثٌ بجدار رحِمِ أنثى ضعيفةٍ، في ظلمةٍ حالكةٍ، وكيف انتقل بقدرة الله ولطفه من مرحلة إلى مرحلة ومن طور إلى طور، حتى خرج إلى النور وصار بشرا سويًّا، حسن الصورة معتدل القامة متناسق الملامح، قادرا على التعبير والبيان، فكيف يتكبّر من كان منبته علقة! ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾ [سورة عبس: ١٧ - ٢٠]، ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢﴾ [سورة الإنسان: ١ - ٢]. مرَّ المهلَّب بن أبي صفرة على مالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته فقال له مالك أما علمت أن هذه المشية تكره إلا بين الصفين! فقال له المهلَّب أما تعرفني؟ فقال له أعرفك أحسن المعرفة. قال وما تعرف مني؟ قال أما أولك نطفة مَذِرَة وأما آخرك فجيفة قذرة وأنت بينهما تحمل العَذِرَة!.[1]

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ وَكَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً مَذِرَة[2]

فإن اغترَّ هذا المخلوق الضعيف بعلمه - وما أكثر من وقع في ذلك- فليتذكر أنه كان جاهلا فعلّمه الله ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [سورة العلق: ٥] ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [سورة النحل: ٧٨] ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [سورة النجم: ٣٢]. فإذا طعن في السن وبلغ أرذل العمر هرمت ذاكرته، وسُلبُ منه - إلا من رحم الله- ما حصّله من علوم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة الحج: ٥].

جهل الإنسان بحقيقته: فهو في حاجة لمعرفة ذاته، لا يستغني في ذلك عن نور الوحي، ليبصر حقيقته، فالعلم مهما تقدم لا يزال أمامه الكثير من أسرار تتعلق بعالم الإنسان، وظائف الأعضاء والأجهزة التي تعمل ليل نهار، والأمراض والأدوية، فضلا عن النفس الإنسانية ذلك العالم الخفي، يقول (ألكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل ومؤلف كتاب: (الإنسان ذلك المجهول): « لقد بذل

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم، (٢/ ٣٨٤). بَيْنَ الصَّفَّيْنِ: في المعارك، حيث يتبختر المقاتل لترهيب العدو، ومذرة رائحة غير مرغوبة كرائحة البيض، وعذرة ما خرج يابسا.

(٢) ترتيب الأمالي الخميسية، للشجري (١/ ٣٦٠) والبيت أنشده أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَاقِي، كما روى المؤلف.

الجنس البشري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، وبالرغم من أننا نملك كنوزا زاخرة وتراثا هائلا من نتاج العلماء والفلاسفة والأدباء والمصلحين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معيّنة فقط من أنفسنا ... إننا لا نفهم الإنسانَ ككلٍّ ... « [1]

ويذكر برتراندراسل أحد فلاسفة الغرب: « أنه على الرغم من كونه وصل إلى كثيرٍ مما كان يحلُمُ به ويسعى للوصول إليه إلا أنه لم يعد من سعيه وراء أمنيته الأولى وهي المعرفة إلا بأوكس الحظوظ»[2].

«فالنفسُ البشريةُ حصنٌ أُحْكِمَتْ أقفالُهُ ولغزٌ معقَّدٌ أتْعَبَ العقولَ وحيَّر الفلاسفة والمفكرين منذ أقدم العصور، وما زالت أقفالُ الحصن عصيةً لا تلين، وطلاسمُ اللغز متأبِّيَةً لا تُحَلُّ، ولقد بُذِلَتْ في العصر الحديث جهودٌ كبيرة، واهتمت المدنيةُ الحديثة بعلم النفس اهتماما بالغا، وتجرَّد له علماء وأنشئت له معاهد، ووضعت نظريات، وألفت الكتب، حتى إذا ظن الناس أنهم وصلوا إلى معرفة النفس وفهم أسرارها وحلِّ عقدها والولوج لمساربها؛ تبين لهم أن هذه النظريات والآراء ما زالت محاولات في أول الطريق، لم تصل بعد إلى المعرفة الصحيحة بالنفس، ولا إلى درجة الحقائق العلمية الثابتة، ومعرفة النفس البشرية ضرورة لازمة لأية دعوة تخاطب هذه النفس، ولأي منهج يهدف إلى تربيتها، ولأي تشريع أو نظام يريد أن يقومها، وأيُّ جهد في هذا السبيل بغير هذه المعرفة جهدٌ ضائعٌ؛ لأنه بُنِيَ على جهلٍ وأُسِّسَ على ضلال ... ومنهج القرآن في دعوة هذه النفس منهجُ العليم بأسرارها الخبير بما يفسدها أو يزكِّيها، المطَّلع على مواطن القوة والضعف فيها « [3] . وصدق ربنا جَلَّوَعَلَا حين يلفت أبصارنا وبصائرنا بقوة إلى عالمنا ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ [سورة الذاريات: ٢٠ – ٢١].

ثانيا: رسالة حب وتعظيم: تحمل الآيات الأولى رسالةً معطرةً بالمحبّة مختومةً بتعظيم الله، إذ يتودَّدُ إلينا ربُّنا، فيخبرُنا أولَ ما يخبرنا أنه خلقنا، فيمتنُّ علينا بأعظم نعمه ومَنشئِها نعمة خلق الإنسان، حيث وهبنا الحياة ومنحنا الوجود، وأولانا العناية منذ أن كنَّا شيئا لا يُذكرُ في بطون أمهاتنا، حتى خرجنا من ظلمات الرحِم وضيقِه إلى نور الدنيا وسعتِها ومباهجِها، فحين نتأمل في مراحل خلقنا ندرك قدرة

(١) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل، (ص ١٦) .

(٢) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، (ص ١٣٧).

(٣) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ٦٦-٦٧ بتصرُّف .

الله تعالى ونشهد بعظمته سبحانه، كيف بدأ الإنسان أولى مراحله، شيئا عالقا في جدار الرحم، حتى خرج طفلا كامل الخلقة، سليم الأعضاء، إنه شاهد من شواهد العظمة، وقد لفت نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى هذا المعنى العظيم، فقال مخاطبًا لهم ومنكرًا حالهم مع ربهم، ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة نوح: ١٣ - ١٤]. فإن التأمل في أطوار خلقنا مما يزيدنا تعظيما وتوقيرا لخالقنا جَلَّ وَعَلَا، وهذا نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلن عن توحيده وحبِّه وولائِه لربه، فيقول مخاطبا قومه منكرا عليهم شركَهم ومقرِّرًا أصل التوحيد ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء: ٧٥ - ٧٨]، فذكر في التعريف بربه: أنه الذي خلقه.

يأمرنا ربُّنا أول ما يأمرنا بقراءة كتابه الذي به هدايتُنا وفلاحُنا، مذكِّرا لنا بربوبيته وما تعنيه من لطف ورعاية وهداية وإصلاح وتربية وتنشئة وتدبيرٍ لمصالحنا، ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾، كما نلمسُ في تكرار ذكر عنوان الربوبية تودُّدًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكل تالٍ للقرآن، مع التذكير بما تحمله الكلمة من معاني اللطف والتدبير والحفظ والإبقاء والهداية، ومجيئ أول وصف لله تعالى بأنه الأكرم مما يزيد القلب محبة لهذا الرب، واطمئنانا لثوابه، وطمعا في جوده.

وقد أشار المفسرون إلى ما في الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأنس، فقال ابن جُزي:" كرّر الأمر بالقراءة تأكيدا والواو للحال، والمقصود تأنيس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنه يقول: افعل ما أُمِرْتَ به فإن ربك كريم». (١)

وقال ابن عطية: « ثم قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ على جهة التأنيس، كأنه يقول: امض لما أُمِرْتَ به وربُّك ليس كهذه الأرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصرك ويظهرك». (٢)
قال القلقشندي: « فأخبر تعالى أنه علم بالقلم حيث وصف نفسه بالكرم إشارة إلى أن تعليم الكتابة من جزيل نعمه وإيذانا بأن منحها من أوفر جوده وفائض ديمه»(٣).

وقال أبو حيان: «وجاء الخطاب ليدل على الاختصاص والتأنيس، أي ليس لك رب غيره» (٤).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي، (٢/ ٤٩٦).
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (٥/ ٥٠٢).
(٣) صبح الأعشى، للقلقشندي، (١ / ٢٣٥).
(٤) البحر المحيط، لأبي حيان الغرناطي، (١٠/ ٥٠٧).

وقال الشنقيطي: « وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذي ينبه العبد إلى ما أولاه الله إياه من التربية والرعاية والعناية، إذ الرب يفعل لعبده ما يصلحه، ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بخبري الدنيا والآخرة، وفي إضافته إلى المخاطب إيناس له. ». (١)

ثالثا: رسالة علم وارتقاء: أمّةٌ أمِّيَّةٌ لا تقرأ ولا تكتب، ولا تحفظُ علماً ولا معرفةً، يأتيهم النّبيُّ الأُمِّيُّ المُرسلُ من عند الله عَزَّوَجَلَّ بكتابٍ فيه عزُّهم ومجدُهم، وفيه نجاتُهم وعصمتُهم، وفيه تهذيبُ سلوكهم وتقويمُ مسالكهم والارتقاء بهم، بعد أن كانوا في ظلامٍ دامسٍ وتخبُّطٍ حائرٍ وجاهليّةٍ جهلاء، ولبثتْ بيئاتُهم مُقفرةً موحشةً، يأكل الغنيُّ عَرَقَ الفقير ويسطو القويُّ على الضّعيف، فجاء القُرآنُ بالعلم الذي يُحيي موات القلوب ويصلح فسادها ويجلّيها، ويُوقدُ سِراجَها، جاء بمنهجٍ وطريقٍ وركائز لبناء أسمى الحضارات وأنقاها، لم تكن تلك الحضارة الإسلامية ربيبةً لحضارةٍ أُخرى، أو متسلّقة على غُصونها، بل قامت على رمال الصّحراء الشّاسعة وأوقدت شُعلتها وأشرقت شمسُها بعد ظلام ليلٍ طويلٍ حالكٍ، لتنثُر ضياءها في رُبوع الكون، ولتبدأ البشريّة عهداً جديداً في ظِلال الإسلام، الذي تولّى قيادة موكب الإنسانيّة قروناً عديدة، جاء بالرُّوح التي تسري في الأمة، فإذا هي حيّةٌ نابضة بعد أن كانت راقدةً خامدة.

تتساءل المستشرقة الألمانية المنصفة سيجريد هونكه في كتابها الرائع شمس العرب تسطع على الغرب، وهو من أروعِ ما كتبه مستشرق منصف عن حضارة الإسلام: « إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلّم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من لا شيء لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني، وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة في هذا العصر لفريدة في نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها، وتدعونا هنا أن نقف هنيهة متأملين، كيف حدث هذا؟ وكيف أمكن لشعب لم يمثّل من قبل دورا حضاريا أو سياسيا يُذْكَر أن يقف مع الإغريق في فترة وجيزة على قدم المساواة؟ إن ما حققه العرب لم تستطع أن تحققه شعوبٌ كثيرة أخرى كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلُها لهذا» (٢) وتقول في موضع آخر من الكتاب وهي تستعرض المكتبات العربية الزاخرة من أقصى الشرق إلى بلاد الأندلس: « إن متوسط ما

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٩/ ١٤).

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكة، مستشرقة ألمانية نقله للعربية فاروق بيضون، كمال دسوقي، (ص ٣٥٤).

كانت تحتويه مكتبةٌ خاصةٌ لعربي في القرن العاشر الميلادي، كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة!» [١].

إن الحاجة إلى العلم ضروريَّةٌ للإنسان، فهو أساس النهضة والتقدم، وعماد الحضارة، وقوام الحياة، لذا قام الإسلام على أساس متين من العلم، وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي الإلهي إلى قلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أشارت إلى فضل العلم، حيث أمر بالقراءة، وهي مفتاح العلم، ونوهت بـ (القلم)، وهو رمزُ العلم وأداتُه التي يدوَّن بها، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، فلا يُعرف دين مثل الإسلام، ولا كتاب مثل القرآن، أشاد بالعلم، وحثَّ عليه، ورغّب في طلبه، ونوَّه بأهله ومكانتهم، وأعلى من قدرهم، وبيَّن فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة، وحضّ على التعلم والتعليم.

قد يتحسَّرُ المعلِّمُ على وقتٍ ضيَّعه، أو يشكو من ضعف راتبه أو قلة تقدير المجتمع له، وربما قارن نفسه بمن ينال أجرا باهظا مقابل أعمال لا قيمة لها كأهل الفن والرياضة، ممن يحظون بتقدير المجتمع وتسليط الأضواء على أعمال لاهيةٍ عابثة، لا نفع لها بل تضرُّ كثيرا، كنجوم الفن والرياضة، فليتذكر أن هناك من لا يبخسه حقه بل يثيبه أعظم ثواب . ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ . ولقد بيَّن القرآن الكريم ما لأهل العلم من مكانة ومثوبة، وكيف يرفع العلم صاحبه إلى معالي الدرجات، فكرّم الله أهل العلم بأن فضَّلهم على غيرهم ممن لا علم له ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٩]. وكرَّمهم بأن رفعهم درجات عظيمة، قال تعالى ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١]، وكرمهم بأن جعلهم ورثة أنبيائه وحراسَ شريعته وحملةَ كتابه ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾[سورة فاطر: ٣٢]، فهل بعد ذلك يقلل البعض من مكانة المعلم أو يزدريه، أو يقلل من شأن العلم! الذي جاء في الرسالة الأولى مقترنا بنعمة الحياة، فواهب الوجود هو واهب العلم، والعلم حياة للقلوب والأرواح، كما أن الخلق انتقال من الموت للحياة، فالجهل موت، كذلك لما أراد الله تعالى أن يذكر مثالا لكرمه الذي لا حدّ له ذكر مثالا بتعليمه للإنسان، فدل على أن العلم أجل النعم وأعظم مظاهر الكرم. « والعلم الذي يُقبل المسلم عليه، ويستفتح أبوابه بقوة، ويرحل لطلبه

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكة، (ص ٣٨٨)

من أقصى المشارق والمغارب، ليس علما معيّنا محدود البداية والنهاية فكل ما يوسع منادح النظر، ويزيح السدود أمام العقل النَّهم إلى المزيد من العرفان، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود ويفتح له آمادا أبعد من الكشف والإدراك وكل ما يتيح له السيادة في العالم والتحكُّم في قواه، والإفادة من ذخائره المكنونة»[1]. وفي امتنانه تعالى على خلقه بتعليمهم ما لم يعلموا ما يوحي بفضل المعلم ومنَّته على من يعلمه. وصدق أمير الشعراء:

قُم لِلمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَبجيلا ... كادَ المُعَلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا
أَعَلِمتَ أَشرَفَ أَو أَجَلَّ مِنَ الَّذي ... يَبني وَيُنشِئُ أَنفُسًا وَعُقولا
سُبحانَكَ اللَهُمَّ خَيرَ مُعَلِّمٍ ... عَلَّمتَ بِالقَلَمِ القُرونَ الأولى
أَخرَجتَ هَذا العَقلَ مِن ظُلُماتِهِ ... وَهَدَيتَهُ النورَ المُبينَ سَبيلا
أَرسَلتَ بِالتَوراةِ موسى مُرشِدًا ... وَابنَ البَتولِ تَعَلَّمَ الإِنجيلا
وَفَجَّرتَ يَنبوعَ البَيانِ مُحَمَّدًا ... فَسَقى الحَديثَ وَناوَلَ التَنزيلا[2].

«قال الملوي: ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف من العلم لذكره تعالى عقب صفة الأكرمية – انتهى، وفي ذلك إشارة إلى مزيد كرم العلماء بالتعليم»[3].

لماذا الامتنان بنعمة القلم؟ القلم آلة من ضمن آلاف الآلات التي يستخدمها البشر في حياتهم اليومية، بل إنه من أيسر المخترعات وأبسط الصناعات؛ فلماذا الامتنان بذكره في أول رسالة قرآنية؟

قال قتادة: القلم نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور

(١) حقوق الإنسان، محمد الغزالي، (ص١٤٨).

(٢) الشوقيات، (١/ ١٨١).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، (٢٢/ ١٦١). ولي الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الملوي الديباجي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذو الفنون بالقاهرة ٧٧٤ هـ. وكان من أعيان فقهاء الديار المصرية.

الدين ولا أمور الدنيا.[١] وقال الزمخشري: « ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به».[٢] وقال ابن القيم: «التعليم بالقلم من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم وتثبتُ الحقوقُ وتُعْلَمُ الوصايا وتحفظُ الشهادات ويُضْبَطُ حسابُ المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيَّدُ أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف. ... فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا للعلم من الضياع. كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان. فنعمة الله عزّ وجلّ بتعليم القلم بعد القرآن، من أجلّ النعم، والتعليم به، وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علَّمه فتعلَّم، كما أنه علَّمه الكلام فتكلَّم. هذا، ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم».[٣]

وقال المراغي: «ولعمرك لولا القلم ما حفظت العلوم، ولا أحصيت الجيوش، ولضاعت الديانات، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل، وعلومهم ومخترعاتهم وفنونهم، ولما سجّل تاريخ السابقين: المسيئين منهم والمحسنين، ولا كان علمهم نبراسا يهتدى به الخلف، ويبنى عليه ما به ترقى الأمم، وتتقدم المخترعات».[٤] وقال عبد الكريم الخطيب: «ومن كرمه سبحانه أنه جعل من القلم الذي هو قطعة جامدة من الحطب، أو الخشب، أداة للعلم والمعرفة، ففتح به على الإنسان أبواب العلوم والمعارف، وجعل من ثماره هذه الكتب التي حفظت ثمار العقول، فكانت ميراثا للعلماء، يرثها الخلف عن السلف، وينميها ويثمرها العلماء جيلا بعد جيل.. وبهذا تعلم الإنسان ما لم يكن يعلم، وبعلمه هذا المستفاد من سلفه، فتح أبوابا جديدة من العلم يتلقاها عنه من بعده، ويفعل فعله، بما يفتح من أبواب جديدة للعلم.. وهكذا تتسع معارف الإنسان، ويزداد علمه على مدى الأجيال»[٥].

(١) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، (٢٠/ ٤١٥).

(٢) الكشاف، للزمخشري، (٤ / ٧٨٢) بتصرف.

(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (١ / ٢٧٨).

(٤) تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٠).

(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، (١٦/ ١٦٢٥).

المبحث الثالث: ثمراتها.

كان لهذه الآيات الأُوَل وقعُها على هذه الأمَّة الأميَّة التي تخلَّفت عن ركب الحضارة ببداوتِها وقسوة حياتها وبعدِها النّائي عن الحضارتين العريقيتين آنئذ، الفرس والروم، ومراكز الإشعاع الثقافي لهما، فكانت بمثابة القبس الذي أضاء شعلة الحضارة الإنسانية الراشدة، وأوقد جذوتها من قلب رماد الصحراء القاسية، لينطلق العرب روادا لحضارة رائدة ومصلحين للأمم والشعوب، وينشروا التوحيد والعدل الذي جاء به الإسلام. كان أول ما نزل من آيات القرآن «أول صيحة تسمو بقدر القلم وتنوه بقيمة العلم وتعلن الحرب على الأمية الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم» [(١)].

يقول الدكتور نور الدين عتر: «وليس يخفى ما في هذا الافتتاح لبدء الوحي بـ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ من الحكمة الجليلة حتى إن الخطباء والكتّاب والأدباء لا يملُّون من القول فيها، ومن أن يردِّدوه في كلِّ مناسبة تقال عن العلم وعن الحضارة، وعن الثقافة وعن القرآن وعن الإسلام، وعن أثر القرآن في تحويل العالم، ولا سيَّما إذا قارنَّا ذلك بما افتُتح به كتابٌ آخرُ لدى الأمم الأخرى». [(٢)]

ويقول الدكتور ستانلي لين بول في كتابه «تاريخ العالم»: «لم يحدث في تاريخ المدنية حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائي بالثقافة الذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فكان كل مسلم، من الخليفة إلى الصانع، يبدو كأنما قد اعتراه فجأة شوقٌ إلى العلم وظمأٌ إلى السفر، وكان ذلك خيرَ ما قدّمه الإسلام من جميع الجهات». [(٣)] ويقول أستاذ الفلسفة الفرنسي روبرت بيرجوزيف: وقد اعتنق الإسلام بعد دراسة جادَّةٍ مُضنية أفضت به إلى اقتناع كامل به: «إنه بلا شك أن الإسلام –وهو دين العلم والمعرفة – يدعو معتنقيه إلى التزود بالعلم، ولا غَرْوَ في ذلك، فإنَّ أولَ آية من القرآن الكريم هي قولُهُ تعالى لرسوله الكريم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ » [(٤)].

ويقول د. ماكس مايروهوف «.. كانت العلوم الإسلامية وهي في أَوْجِ عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتبدِّد غياهب الظلام الذي كان يلف أوروبا في القرون الوسطى.. ولما كان لتلك العلوم سهمها

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، (ص ١٩٥).

(٢) علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر الحلبي، (ص: ٣٦) . بتصرف.

(٣) تاريخ العالم، (نشره السير جون. أ. هامرتن)، (٤ / ٦٠٧) .

(٤) رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا، (ص: ٣١٦).

الأوفى في توجيه عهد (إحياء العلوم) وحث خطواته، فعلينا أن نقرّ مذعنين بأن التراث العربي الإسلامي مازال يعيش في علومنا حتى الآن»[١].

وتقول بوجينا جيانة: «إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة»[٢].

وإن أمثال هذه الشهادات الناصعة من الغربيين هي التي حملت بعض المنصفين منهم أن يعتبروا معركة «بواتييه» التي انهزم فيها العرب على أعتاب فرنسا، نذير شؤم على أوروبا والإنسانية عامة، وأن فرنسا ضاعت عليها فرصة تاريخية للحاق المبكّر بركب الحضارة العربية التي ازدهرت بعد ذلك بزمن وجيز، أي: إنها فقدت فرصة عظيمة لاختصار عهد الفوضى الإقطاعية، وتكوين وحدتها القومية. يقول أناتول فرانس في «الحياة المزهرة»: «... إن أكثر أيام التاريخ شؤما هو اليوم الذي جرت فيه معركة «بواتييه» في سنة ٧٣٢م، حين تراجع العلم والفن العربيان والحضارة العربية أمام البربرية الفرنجية». [٣]

وختاما يقول الشيخ محمد عبده: «لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه. من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات. فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم، وكسر تلك الأبواب التي غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها في ظلمات من الجهل وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع، فلا أرشدهم الله أبدا» [٤].

(١) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، (ص ٥٠٦).

(٢) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، بوجينا غيانة ستشيجفسكا ص ١٧ . باحثة بولونية درست في الأزهر خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥)، وقبلها في معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

(٣) الحضارة العربية، لروجيه جارودي، (ص٨، ٩). نقلا عن قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار، محمد عبد المنعم خفاجي (ص: ١٠٥). ومعركة بواتيه المعروفة لدى المسلمين بمعركة بلاط الشهداء عام (١١٤هـ - ٧٣٢م) والتي فيها هزم المسلمون وتم وقف المد الإسلامي وإعاقته عن الامتداد فيما وراء جبال البرانس.

(٤) تفسير جزء عم، للشيخ محمد عبده، (ص ١٢٤).

المبحث الرابع: مكانة الوحي.

لقد كان الوحيُ منذ بدايتِه، وحتى تمامِه، فاتحةَ خيرٍ على المؤمنين خاصةً وعلى الإنسانية جمعاء، يتضح ذلك حين نتتبع نزوله، وفق الأحداث والنوازل، معقِّبا وموجِّها، ومجيبا عن التساؤلات، ومفنِّدا لما يطرحُ من شبهات، ومدحضًا لحججِ المخالفين، وقامعًا للأعداء المناوئين، ومزلزلا عروشَ الظالمين، وفاضحًا تآمرَ المنافقين، وهادما لصروح الجاهلية مقتلعا نبتتها مجتثا جذورها، مبطلا لعاداتها وتقاليدها الظالمة، بينما نراه في المقابل بلسما وسلاما على عباد الله الصالحين، ورحمةً وشفاء لقلوب المؤمنين، لذا أحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزوله وكذلك الصحابة، وترقبوه كما يترقبُ أهلُ البادية المطر، وفرحوا بنزوله كما يفرحُ الظمآن بالماء البارد، فكان يتنزل بالخير والبركات ويفيض بالأجر والمثوبات، ويُرسَلُ بالمبشرات، وينطق بالأجوبة الشافية، ويُسجِّل المناقب والمكرمات، يوجِّه المؤمنين، ويرشدهم، ويشِيد بجهادهم ويلهب حماسهم، ويشدُّ أزرهم، ويثبت قلوبَهم، ويفرّج همومهم، ويغسِل أحزانهم، ويداوي جراحهم، فكان ربيع القلوب، ونسيم الأرواح، وبهجة النفوس، كم انجلى برفع الحرج عنهم، وكم صرَّح بتبرئة ساحة متّهمٍ ظلما، وكم كان ينزل تسليةً لمصابٍ ألمَّ بالمؤمنين، بل كان ينزل احتفالا بنصرهم، فكان روحا حاضرةً تسري في المجتمع، نزل ببراءة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد انقطاعٍ زاد عن شهرٍ، جعل النفوس إليه متشوّفة، والقلوب عطشى، نزل ببراءتها بعد طول انقطاع، آياتٍ تتلى تنزه ساحتها وتزكّيها، وتشيد بموقف المؤمنين الصادقين من هذه المحنة، وتتوعد الخبيثين الأفّاكين، وتعاتب وتوبخ من أشاع هذا الإفك، وتمتدح أبا بكر الصديق، وتصدّق نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال لعائشة «... **فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ**»، وقولها «وَاللهُ يَعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يُبَرِّئُنِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ يُنَزِّلُ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَشَأْنِي - كَانَ - أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيَّ رُؤْيَا فِي النَّوْمِ يُبَرِّئُنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا. قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلا خرجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، وَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلَ الْجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ

يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ**». قَالَتْ: فَقَالَ لِي أَبِي: قُومِي إِلَيْهِ، قُلْتُ: وَاللهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَإِنِّي لأَحْمَدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ...».[١]

وعندما جاءت خولة بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شاكيةً زوجها الذي ظاهر منها، ودار حوارٌ بينها وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنزل الله في شأنها قرآنا يتلى، نزل في التوِّ بإنصافها وتفريج همها،[٢] وهكذا كان الوحي فاتحةَ خير! كم نزل ببراءة أشخاصٍ أو أقوام! وكم أفاض بالبركة والخير، والتكريم والبشارات! ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الإسراء: ٨٢] بينما كان حربا على أعداء الله يترصَّدهم فيرهبون نزوله، ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة التوبة: ٦٤]، ومن هنا ندرك سرَّ بكاء أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندما زارها الصاحبان أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالاَ لَهَا مَا يُبْكِيكِ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا .[٣] هذه الصحابية التي كانت قريبة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شتى مراحل حياته، منذ أن كانت حاضنةً له في صغره ثم أعتقها، وأسلمت وهاجرت، وأنجبت للأمة قائدا، أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائد جيش المسلمين، الذي أنفذه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للشام.

أدركت أهميةَ الوحيِ الذي انقطع بموت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن أكمل الله الدين وأتم النعمة، فكان نزول الوحي في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدثًا جليلا يدخل السرور على القلوب، ويثبت الأفئدة،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عائشة ك التفسير باب (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون ..) حديث (٤٧٥٠) ورواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة ك التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف حديث (٢٧٧٠) .

(٢) روى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ إِنِّي لأَسْمَعُ كَلاَمَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكَلَ شَبَابِي وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ لَهُ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي! اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِهَؤُلاَءِ الآيَاتِ {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}، قَالَ: وَزَوْجُهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ. الآيات . رواه الحاكم في المستدرك كتاب التفسير باب تفسير سورة المجادلة، (٢/ ٤٨١) واللفظ له وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبي. ورواه البخاري معلقا في صحيحه عن عائشة، كتاب التوحيد باب (وكان الله سميعا بصيرا)، فتح الباري، (١٣/ ٣٨٤) ورواه النسائي موصولا في السنن كتاب الطلاق باب الظهار (٦/ ١٦٧) .

(٣) رواه مسلم في الصحيح فضائل الصحابة باب مِنْ فَضَائِلِ أُمِّ أَيْمَنَ رضى الله عنها - حديث (١٠٣)- (٢٤٥٤) .

ويزيد المؤمنين إيمانا ويقينا وعلما وعملا، أثارت الزيارةُ شجونها ففاضت عبراتها، حين ذكَّرَها الصاحبان بالحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحين تبكي امرأةٌ لانقطاع الوحي فتلك شهادةٌ صادقةٌ على حُبِّ ما جاء به الوحيُ وقبول رافديه: الكتاب والسنة، ففيهما الخير والرحمة والتيسير ورفع الحرج ودفع الظلمِ عن النساء، وتخليصهن من عادات الجاهلية الذميمة والتي كان لهن نصيب أكبر في تبعاتها، إذ كن ضحايا لتلك التقاليد البالية الطاغية، جاء الوحي بتكريم المؤمنات، والارتقاء بهن إلى معالى الفضيلة، وإرشادهن إلى صلاح الدين والدنيا، حتى حفلت كتب السيرة والتاريخ والتراجم بأسماء النساء اللاتي سطَّرن صحائف من ضياء وعطَّرن أجواء الحياة بمآثرهنَّ الشريفة، ومناقبهن المنيفة، فكنَّ أنجما زاهرات يتألقن في سماء الإنسانية . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ». (١) وهل يمكنُ لغير وحي الله تعالى أن يغيِّر واقع الجاهلية القاسي ويبدد ظلامها الدامس!

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[سورة الشورى: ٥٢].

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب التفسير - سورة الطلاق ، حديث (٤٦٢٩).

مجلة تعظيم الوحيين

الخاتمة

في نهاية المطاف، وبعد أن عشنا في رحاب أول ما نزل، وتأمّلنا في حديث بدء الوحي، نخلص إلى النتائج التالية:

١. أول ما نزل من القرآن صدر سورة العلق.

٢. من شواهد عناية القرآن بالإنسان ورود اسمه في أول رسالة قرآنية مرتين، في مقام الامتنان عليه، بأجلِّ نعمتين، نعمة الخلق ونعمة العلم.

٣. القرآن كتاب التوحيد كما يتضح من أولى رسائله، وهو كتاب علم وحضارة وارتقاء.

٤. تحمل الرسالة القرآنية الأولى رسالة تعظيم ومحبة وتودُّد من الله للعباد، ورسالة معرفة.

٥. أشادت الآيات الأولى بفضل العلم والقراءة والكتابة، وفضيلة القلم.

٦. كانت الآياتُ الأولى بداية مرحلةٍ جديدة في تاريخ الإنسانية عامّة، وعهد جديد في تاريخ العرب خاصة. إذ كانت منطلقاً لحضارة رائدةٍ.

٧. من محبة الله تعالى إكرام من أكرمه، وقد كرَّم الله أهل العلم، فالواجب إكرام العلماء.

توصية البحث:

أوصي بكتابة بحث حول تدبر آخر ما نزل من القرآن، لمعرفة آخر وصاياه. كما أوصي بدراسة حديثية موضوعية حول أحاديث بدء الوحي، ودراسة أثر القرآن الكريم في حياة الصحابة، وأثره في بناء الحضارة.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

١. **الإتقان في علوم القرآن للسيوطي**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت ٩١١ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى: ١٣٩٤هـ.

٢. **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، للفاكهي: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت ٢٧٢هـ)، المحقق: د. عبد الملك عبد الله دهيش ط دار خضر – بيروت، ط٢، ١٤١٤.

٣. **إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم**، لأبي السعود محمد بن محمد مصطفي العمادي الحنفي (ت ٩٨٢ هـ) ط دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٤. **أسباب نزول القرآن**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٥. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي ت ٤٦٣.ط دار الجيل بيروت ١٤١٢. ط١.

٦. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، ط دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ١٤١٥ هـ.

٧. **الإنسان ذلك المجهول**، ألكسيس كاريل. مكتبة المعارف.

٨. **البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي محمد بن يوسف، ط دار الفكر.

٩. **بلاغ الرسالة القرآنية**، فريد الأنصاري، ط دار السلام القاهرة.

١٠. **البيان والتبيين**، للجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان،(ت ٢٥٥هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ.

١١. **تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها**، بوجينا غيانة، ط المكتب التجاري للترجمة والنشر بيروت، ١٩٦٦م.

١٢. **تاريخ العالم**، (نشره السير جون. أ. هامرتن) مكتبة النهضة المصرية.

١٣. **التحرير والتنوير**، للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) ط دار سحنون تونس.

١٤. **تراث الإسلام**، إشراف سير توماس ارنولد، جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد الناشـــر: دار الطليعة للنشر بيروت ١٩٧٢.

١٥. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ ط مؤسسة قرطبة.

١٦. **تفسير المراغي**، أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ) ط البابي الحلبي ط أولى، ١٣٦٥هـ.

١٧. **تفسير جزء عم**، للشيخ محمد عبده ط٣، ١٣٤١هـ مطبعة مصر، الجمعية الخيرية الإسلامية. ص ١٢٤.

١٨. **جامع البيان في تفسير القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) ط دار إحياء التراث العربي ط ٢.

١٩. **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي) ت ٦٧١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ م.

٢٠. **حقوق الإنسان**، محمد الغزالي، دار نهضة مصر طبعة١.

٢١. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥.

٢٢. **شمس العرب تسطع على الغرب**، سيجريد هونكة، مستشرقة ألمانية نقله للعربية فاروق بيضون، كمال دسوقي، ط دار صادر بيروت.

٢٣. **الشوقيات**، شعر أحمد شوقي، ط دار العودة بيروت.

٢٤. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د.يوسف علي طويل ط دار الفكر – دمشق، ط أولى، ١٩٨٧م.

٢٥. **صحيح البخاري**، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٢٦. **صحيح مسلم**، الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١ هـ) دار إحياء الكتب العربية.

٢٧. **علوم القرآن الكريم**، نور الدين عتر الحلبي مطبعة الصباح – دمشق الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٨. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢٩. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) – ط دار الفكر بدون تاريخ.

٣٠. **في ظلال القرآن**، لسيد قطب (ت ١٩٦٦م) دار الشروق سنة ١٤٠٧ هـ – ط ١٣.

٣١. **قصة الأدب في الحجاز**، عبد الله عبد الجبار، محمد عبد المنعم خفاجى ط مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة ١٩٥٨م.

٣٢. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (ت ٥٢٨ هـ) ط دار الفكر بدون تاريخ.

٣٣. **اللباب في علوم الكتاب**، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، ت ما بعد ٨٨٠هـ دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٩ هـ، ط١، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض.

٣٤. **مجموع فتاوى ابن تيمية**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية – ١٤١٦هـ.

٣٥. **المحرر الوجيز**، لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت ٥٤٦هـ) ط مؤسسة دار العلوم الدوحة ١٤٠٣هـ.

٣٦. **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، انتقاء الحافظ ابن الدمياطي ت٧٤٩ه، دار الكتب العلمية بيروت. طبعة أولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

٣٧. **المصباح المنير في غريب الشَّرح الكبير**، للفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري، (ت ٧٧٠هـ) ط المكتبة العصرية.

٣٨. **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، للبغوي محيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (ت ٥١٠هـ). تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط١: ١٤٢٠ هـ

٣٩. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) دار الفكر ١٤٠٥ هـ.

٤٠. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، لابن القيم ت ٧٥١، دار الكتب العلمية.

٤١. **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**، د. محمد سعيد رمضان البوطي دار الفكر دمشق.

٤٢. **منهج القصة في القرآن**، محمد شديد، ط دار عكاظ جدة ١٤٠٤هـ

٤٣. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ت ٨٨٥هـ، ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ط ٢، سنة ١٤١٣هـ.